دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

النصف الآخر للحقيقة

"ما بال الزمان يضن علينا برجال ينبهون الناس..
ويرفعون الالتباس، ويفكرون بحزم، ويعملون
بعزم، ولا ينفكون حتى ينالوا ما يقصدون"

عبد الرحمن الكواكبى

obeikan.com

obeikan.com

ويبقى دور جمال عبدالناصر رقما بارزا فى حسابات التعريف التاريخى لدور الفرد فى مرحلة تاريخية معينة.. يبقى دوره كاشفا لدلالات ومعان دور الفرد التاريخى من حيث الالتحام والتوحد مع دور مصر.. من حيث معايشته لضرورات وأحكام هذا الدور.. وربما يمكن القول ـ تجاوزا ـ وكأن دور مصر كان يترقب دور الرجل، بعد سنوات من عمر التاريخ شهدت حصارا على هذا الدور، أو إغفالا أو تجاهلا لمقدرات ومفهوم دور مصر، أو العجز عن إدراك الموروث التاريخى والحضارى والإنسانى لهذا الدور، أو عدم القدرة على استلهام روح مصر، واكتشاف أبعاد الدور المصرى الذى يتجاوز حدوده إلى ما هو أبعد من الموقع الجغرافى، وباعتبار أن قدر مصر أن تصبح قوة إقليمية فاعلة ونافذة ومؤثرة بعروبتها وبعمقها الاستراتيجى فى إفريقيا، وقوة عالمية بمكانتها وتأثيرها فى حركة الأحداث داخل العالم الثالث وبعمقها الاستراتيجى داخل الدائرة الإسلامية الأوسع..

. . . .

وإذا كانت الحركة التاريخية التى قادها جمال عبدالناصر قد أثرت فى منطقة تجاوزت حدود الدوائر الثلاث العربية والإفريقية والإسلامية. فإن دوره بالأساس كان يعتمد على الوعى الاستراتيجى بإحكام دور مصر، وبمصلحة مصر الاستراتيجية.. ولذلك لا يزال الرجل متفردا بزعامته فى وجدان الأمة، وأن يتحرك خاطرا يحوم حولها كل يوم، وطوال تلك السنوات التى لا نعرف لها نهاية.. ولا يبدو أن لها نهاية مقدرة حتى الآن!! والزعماء خالدون بما أعطوا، وبما تركوا، وبما رسخوا من مبادئ وقيم ومواقف.. وفى جانب كبير من هذه الصورة كانت حياته ملكا لأمته وقارته الإفريقية، وكانت أفعاله أقوى وأمضى من كل الأفعال.

ومثل هذا لا يزال قائما فوق ساحتنا العربية وخارجها . .

ومثل هذا وجده الأديب الكبير بهاء طاهر متجسدا فى إفريقيا . .

وتقول الواقعة كما يرويها الروائى الكبير :

كنا فى رحلة من العـاصمة نيروبى إلى مدينة كينـية أخرى، وتوقفت بالسيارة فى قرية صغيرة على الطريق فتوجهت مع مجموعة من جنسيات مختلفة نبحث عن سجائر فى ذلك المكان . . دلونا على دكان صغير يشبه مثله فى أى قرية من قرانا، حيث تتكـوم أجولة السكر والدقيق فى ناحية وبجوارها صفائح الزيت وقطع الصابون المرصوصة، وأوعية تضم حلوى للأطفال، ورف للسجائر . . الخ، ووسط كل تلك الفوضى كانت هناك، فى صدر المحل صـورة مثبتة بالدبـابيس فى الحائط، صورة ملونـة قديمة لوجه يبتسم، وكنت أعرفها جيـدا "صورة جمال عبدالناصر" . . وعندما اشتريت السجائر من صاحب الدكان العجوز، سألته بشكل عابر :

صورة من هذه المعلقة هناك؟

فالتفت الرجل خلفه فى دهشة مشيرا إلى الصورة وهو يسألنى :

ألا تعرف من هو؟

لا

فقال الرجل ببساطة : هذا هو أبو إفريقيا .

ولن أنسى ما حييت البساطة واليـقين فى لهجة ذلك الرجل الأشيب وهو يقول لى بلكنتـه الإفريقية (This is the father of Africa) وقـفت صامتا للحظة . كـنت قد تركت مصر وقتها، وصحف العـهد تتبارى فى الهجوم على عبدالناصر، لم يترك الكتاب نقيصة إلا وألصقوها به، وكان

نشر صورته أيامها من المحرمات، ناهيك بالطبع عن إذاعة صوته، أو الإشارة إلى أى شىء حسن فعله فى حياته، حتى بحيرة ناصر خلف السد العالى، معركته الكبرى، وإنجازه الباقى، شطبوا اسمه من عليها مخافة أن يذكر الناس به. . "

. . . .

. . . .

وفى مجمل الأحوال فإن الملائكة لا يسكنون الأرض، والرجل الكبير ـ رحمه الله ـ خاض تجربة متفردة فى تاريخ مصر والأمة العربية. . وللتجربة إيجابيات وسلبيات، ولكنه حاول أن يحدد ملامح المشروع العربى الكبير، وهو يحمل همّ أمته، قاصدا العبور إلى مرحلة التغيير السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى، وقد كان عظيما مع كل المحاولات. . ولأنه لا يمكن إلا أن يكون هكذا. .

ومعيار الحكم على الرجل الكبير يجب أن يرتكز أولا على ثلاثة محاور. . الزمن والفعل والإنجاز. .

الزمن: بتوقيت المرحلة التاريخية وأوضاعها وظروفها وأحداثها. .

والفعل: بمفهوم الحركة التاريخية لدور مصر والمتغيرات التى هبت على الساحة العربية

والإنجاز: بحقائق المتغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية داخل مصر. . ثم نقيس بحجم هذه التجربة حجم الأخطاء والسلبيات.

ولا أعتقد أن هناك من ينكر ولو فى لحظة صدق مع النفس. . ولو

فى لحظة مباغتة لاسترجاع زمن الحدث الذى مضى. . أن الرجل الكبير ـ وهو فى رحاب الله ـ لا يزال يمثل رمزا لشموخ وكبرياء هذه الأمة، بعد أن أعاد تقويم مسيرة التاريخ العربى بعد عشرات السنوات من الضياع والاحتلال والسقوط تحت سلطات مستعمرات النفوذ والمصالح. .

وهذا ما تقوله حقائق الزمن الراهن!!

وكان رحمه الله ـ أكثر وعيا لدور مصر الإسلامى. . وكان تقديره أن الأزهر الشريف يمكنه أن يؤدى دورا رائدا وفعالا ومؤثرا، وبالتالى كان لابد له أن ينهض ليواكب التطور الهائل فى شتى نواحى الحياة المختلفة، وأن يخرج بالأزهر الشريف من دوره المحلى إلى دوره العالمى. . فقد كان عبدالناصر مدركا لهذا الدور وكان يرى أن الطبيب الأزهرى والمهندس الأزهرى، والباحث الأزهرى، فى شتى العلوم التجريبية، يستطيع أن يؤدى دورا لا يقل أهمية عن الدور المتخصص فى الدراسات العربية والإسلامية، وأنه عبر الدهر سيخلق تواجدا لمصر فى العالم. . ومن هنا كانت رؤيته لأهمية تعليم المسلمين فى إفريقيا، وربما كان ذلك أحد أسباب تطوير الأزهر الشريف وتوسيع مجال الدراسة فيه ليشتمل على بعض الكليات العملية والتخصصات الأخرى. . وبطبيعة الحال لم يكن فى مقدور مصر أن تتولى مسئولية التعليم فى هذه المناطق كلها، ولكنها كانت تريد أن توجد النخبة المتعلمة من المسلمين فى كل مكان من إفريقيا. . ولم تشأ مصر أن يصحب هذه المساعدات ضجيج أو دعاية تتناسب مع حجمها، خاصة وأن مساعدة المسلمين فى كثير من الأحوال كانت تثير شكوكا وحساسيات لدى بعض الزعماء والحكومات فى الغرب. .

وفى عهده خصصت المنح الدراسية لإفريقيا فى جميع الميادين بما فيها الأزهر الشريف والجامعات والمدارس الأخرى، وكان هناك اهتمام خاص بالمناطق الإسلامية.. وعلى سبيل المثال كانت المنح الدراسية مفتوحة لإريتريا منذ عام ١٩٥٥ بحيث لا يرد أى طالب علم يأتى من إريتريا، وأعطيت التعليمات لأجهزة الأمن على الحدود، بألا يمنع إريترى من دخول الأراضى المصرية، حيث كان الإريتريون يحضرون إليها سيرا على الأقدام للالتحاق بالأزهر، وذلك نتيجة للاضطهاد الذى كانوا يلاقونه أثناء حكم الإمبراطور هيلا سيلاسى، حتى أنه طلب من جمال عبدالناصر فى إحدى زياراته إلى القاهرة، أن تقدم المنح المخصصة للإريتريين فى الأزهر عن طريق الحكومة الأثيوبية، ولكن عبدالناصر رفض متحججا بأنه لا يستطيع التدخل فى شئون الأزهر.. فقد كان عبدالناصر يرى ضرورة فتح أبواب العلم أمام المسلمين وخاصة فى المناطق التى حرموا فيها من فرص التعليم لمجرد أنهم مسلمون، وكان يشعر بأن مسئولية خاصة فى هذا المجال تقع على عاتق مصر بصفتها أقدم دولة إسلامية فى إفريقيا، وأكثر دولة قدرة على تقديم هذا النوع من المساعدات..

وكان عبدالناصر حريصا على توحيد صفوف الأمة الإسلامية، وسد الثغرات التى يحاول الآخرون إثارة الفتنة من خلالها بين السنة والشيعة.. ودعا فى عام ١٩٦٢ إلى مؤتمر علماء المسلمين.. ولأول مرة فى تاريخ مصر يجتمع علماء المذاهب الثمانية " الحنفية ـ المالكية ـ الحنابلة ـ الشافعية ـ الإمامية الاثنى عشرية من إيران ـ والزيدية من اليمن ـ والأباضية من عمان ـ والظاهرية من "الجزائر".. وكانت رؤية جمال عبدالناصر فى هذا الوقت المبكر هى أن تقدم الأمة مرهون بأن تعيد قراءة

تراثها وتوحيد صفوفها، وقد نتج عن المؤتمر جهد فكرى عظيم سجل فى موسوعة ناصر للفقه الإسلامى، وتتناول بحث كافة المسائل الفقهية، وحكم المذاهب الثمانية فيها، بدأت من حرف (أ) ومازالت تصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية تأكيدا بأن المذاهب ليست أديانا بل هى فهم للدين..

....

....

وأعتقد أن قراءاته المتعمقة للتاريخ ـ وكانت هوايته الأولى منذ مرحلة الشباب الأولى ـ خلقت علاقة شبه صوفية بينه وبين ضرورات وأحكام دور مصر، وأن يكون هذا الدور فاعلا ونافذا ومؤثرا ومتواصلا على ساحة تجاوزت بالطبع ـ وبأحكام دور مصر ـ حدود الجغرافية المصرية.. وهى سنوات من عمر التاريخ المصرى المعاصر عبرت عنها كلمات الدكتور ة سهير اسكندر ـ حزب الوفد ـ بإيجاز أكثر تعبيرا ومصداقية.. وهى تقول: كنا نشعر بالاستقلال الفعلى، بل لعلنا أسرفنا فى الشعور بالزهو والثقة، ذلك كان حال مصر فى مرحلة الستينيات الخصبة فنيا وثقافيا، فقد كانت مصر مستقلة ومنتجة وحاضرة..

وبإيجاز غير مخل كان دور مصر الثقافى فى هذه الحقبة رياديا وفاعلا ومؤثرا.. وهى حقيقة تراها الدكتورة هالة مصطفى ـ مركز الدراسات السياسية والاستراتجية بالأهرام ـ قد سجلت أروع ازدهار للأدب والفن الروائى والسينمائى.. حرية الإبداع وحرية التعبير عنه. فى زمانها كتب ونشر نجيب محفوظ أديب وروائى مصر العظيم أعظم أعماله وأكثرها جرأة ونقدا للواقع السياسى والثقافى والاجتماعى: "سائق القطار"

و"ثرثرة فوق النيل" و"ميرامار" و"المرايا" وغيرها، وكانت هذه القصص والروايات تنشر على حلقات فى الصحف والمجلات القومية قبل أن يتحول بعضها إلى أعمال سينمائية، وكان الأهرام بتقاليده العريقة الممتدة إلى الآن فى مقدمة تلك الصحف. وفى نفس الزمن قدم أديب مصرى كبير آخر هو ثروت أباظة روايته الشهيرة "شىء من الخوف" التى أثارت وقتها زوبعة سياسية، واعتبرها البعض نقدا صريحا للحاكم.. والحاكم وقتها لم يكن سوى الرئيس الراحل جمال عبدالناصر. وتحولت الرواية إلى فيلم سينمائى شاهده ناصر بنفسه، وبعدها سمح بعرضه فورا دون رقابة: وهذا جانب مشرق من الصورة، بل مشرق جدا لتلك الحقبة بما لها وما عليها".

وميزة القائد التاريخى هى مقدرته على الاتصال بالحقائق التاريخية وقابليته للتعبير عنها: فكرة وحركة.

وهكذا كان تجسيده لدور تاريخى، يمليه عليه دور مصر..

وأتصور أن الإعلام الغربى كان على درجة كبيرة من الوعى بما سيحدث فى المنطقة بعد غياب دور الرجل.. وكانت التوقعات ـ بعد الرحيل مباشرة ـ أقرب إلى استشراف وقائع المستقبل العربى، واستكشاف تخوم المتغيرات التى ستهب على الساحة العربية..

قالت صحيفة "الجارديان".. البريطانية: إن العالم كله سيبكى ناصر بوصفه رجلا متفوقا حتى على نفسه.. وتستشعر بغيابه إسرائيل.. وكانت له قدره فائقة على تغيير مجرى الأمور فى بلاده.. والقيادة العربية كلها ستتأثر بوفاته، لقد فقد العرب قائدا معترف به بل إن العرب الذين كانوا يخالفونه سيبكونه يوما..

"التايمز" . . إذا كانت عظمة الرجال تقاس بقدر الفراغ الذى يتركونه بعد مماتهم، فإن ناصر يعتبر بحق أعظم الرجال. . كان تأثيره كبيرا، يمد ظلاله من الشرق الأوسط على قارات المنطقة، واحتل مكانة كبيرة.

"الديلى تلجراف" . . صحيح أن ناصر وحده كان يستطيع أن يقنع كل العرب بالتوصل إلى سلام دائم مع إسرائيل، ولكنه أيضا كان الوحيد القادر على أن يجعلهم يحاربون إلى آخر المدى.

"الواشنطن بوست" . . لقد اختطف الموت ناصر وهو فى موقف سياسى بارز وهو يحاول حقن الدماء فى الأردن. . لقد كان ناصر دائما فى القمة وقد سجل له التاريخ مآثر كثيرة.

"الايفننج ستار" . . لقد جاءت وفاة ناصر فى وقت من أحرج الأوقات التى يمر بها الشرق الأوسط، وصحيح أن الغرب لم يجد الفرصة ليفهم ناصر، ولكن الخسارة بوفاته جاءت خسارة للعالم كله لذكائه غير العادى وقوة إرادته وشجاعته. .

"النيوزويك" . . لقد رأينا فى مصر ثلاثة أنهار، نهر النيل، ونهر البشر، ونهر الدموع، ومن هنا عرفنا عظمة الرجل. .

. . . .

. . . .

أصبح دور الرجل. . رمزا لدور مصر.

وجاء الرثاء الذى كتبه فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ رحمه الله ـ فى ذكرى الاربعين لرحيل عبد الناصر فى شهر نوفمبر ١٩٧٠ أكثر تعبيرا عن خصائص العلاقة بين الدور والزعيم. . قال "الشعراوى" :

وقد كان البطل الماثل، ولا أقول الراحل، فلتة زعامة، وأمة قيادة، وفوق الأسطورة للريادة، لأن الأسطورة خيال متوهم، وما فوق الأسطورة واقع مجسم، إن بطلنا الماثل لا الراحل قد عرف أبعاد الحياة للعبقريين الموهوبين، عرف لحياته عرضا، وعرف لحياته عمقا، وعرف لحياته سموقا، وتدرج بحكمته المذهلة فى تخطى تلك الأبعاد كلها شمول ووعى للزمان والمكان والإنسان، وتأصيل مبادئ فى النفس، ثم انتقل البطل إلى الدائرة الثانية من أبعاد حياته، فانتفض العملاق العربى برأسه متطاول إلى السماء وقدمين راسختين فى الأرض ومد يديه ليحدد وطنه العربى بجغرافية الحق لا بخرائط الرق، فاستقرت أنامل يمناه على الخليج العربى، واستقرت أنامل يسراه على المحيط الأطلسى، وظل يهدهد العروبة حتى شبت فى الرؤوس، وتأججت عقيدة فى النقوس، وأصبحت نشيدا على كل لسان، ولقد سمعت من أخى الدكتور "رزقانة" فكرته فى تلك الدائرة قبل فكرته فى الدائرة التى وصفها فى فلسفة ثورته، الدائرة الثالثة، لأن الإسلام بالعروبة انساج، وبها امتد.. وأعانه على ذلك إسلامه بكل ما فيه من تعاون وتواد وتحاب، وحرية وإخاء ومساواة.. كان رحمه الله أمام كل ثورة تحررية بالإيحاء والقدح، ووراءها دائما بكل الإمكانيات والمنح، فوضع البطل بصماته الإنسانية على التاريخ المعاصر، ولذلك لم تجرؤ قوة فى الأرض أن تزحزح المظلومين عما لقنهم "جمال" من مبادئ للإباء على الضيم، والانتفاض على الظلم، والنهضة إلى الآمال الواسعة والوارفة، ولن تستطيع أى قوة فى الأرض، أن تسلب المكاسب التى أدتها إنجازاته، ولا أن تحجب الآفاق التى أعلنتها تطلعاته.. لم يكن زعيما فحسب، وإنما كان أستاذ زعامة، ولم يكن ثائرا فحسب، وإنما كان معلم ثورة ودارس مبادئ، وكانت

عبقريته فى غرس هذه المبادئ. . وأسألك يا رب أن تجزيه الجزاء الأوفى على ما قدم لإسلامك من شيوع وتثبيت وانتشار وإعلام، وعما صنعه كما قال أخى فى الأزهر الذى تطور به ليتطور مع الحياة وليجعل منه بحق منارة الدين وحملة رسالة الله.

كان رثاء رجل الدين، لرجل السياسة، تقديرا لما قدمه لوطنه ولأمته، فى حقبة تاريخية، هى من أخصب حقب التاريخ العربى الحديث، وحين كان دور مصر حاضرا وفاعلا ونافذا. .

. . .

وهكذا كان دور الرجل. . رمزا لدور مصر

. . . .

ومع مراعاة تجنب الجدل حول دور الفرد فى التاريخ، أو دور التاريخ فى صناعة البطل، أو حكم المصادفات، والعوامل المساعدة فى خلق أسطورة الفرد التاريخى، فإن الثابت لنا عبر القرون الممتدة أن للتاريخ مشاعل تضىء دروبه وتهدى مسيرة الشعوب إلى طرق مقاصدها حتى تبلغ أهداف آمالها أو على الأقل أن تنتبه إلى حالها وما هى عليه وتنفض عن كاهلها تلال القنوط واليأس. . ودور القائد البطل ليس حكرا على المجتمعات المتخلفة أو النامية أو التى تعانى من قهر التخلف والسيطرة الخارجية. . ولكن حتى المجتمعات المتقدمة التى ترتكز إلى مؤسسات دستورية فإن دور الفرد القيادى لا يختفى من حياتها، فكثير من الرجال كانوا "بوصلة" شعوبهم وأساس الحركة التاريخية لحياتهم فى أوقات الأزمات والمحن. .

وإذا كان هذا دور الفرد فى المجتمعات وفى حركة التاريخ..

فإن هناك أحداثا تعد نقط تحول تاريخية فى حياة الأمم يمكن أن نطلق عليها (أحداث المهام الكبيرة) التى تنجز على أرضها وحولها واقعا جديدا يجسد إرادتها ويحرك هممها، أى تسحب وراءها متغيرات شاملة أبعد من حدودها المحلية، وتبشر بعهد جديد، وحقبة زمنية جديدة تزدحم مشاعرها بمختلف الرغبات والتمنيات لصياغة مستقبل جديد.

.. هكذا كان دور جمال عبدالناصر..

وهكذا كان دور ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

أى أن للأمة العربية تاريخا حديثا يمكن كتابته وتسجيله وتوثيقه مع بداية الثورة حين بدأت الآمال تنمو نموا طبيعيا، وحين بدأت العقول العربية فى اكتشاف مجموعة أهداف مشتركة وآمال وتطلعات تحيط بمشروع المستقبل.

وبعد الرحيل.. كان للفراغ السياسى دورا آخر!!

وهكذا ـ كما يقولون ـ تمهد الأقدار.. للأقدار.. وتمهد الأحداث.. للأحداث!!